

قضايا و آراء

الأثنين 12 من شوال 1423 هـ 16 ديسمبر 2002 السنة 126-العدد 42378

من أسرار القرآن:

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية
(74) وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل
صنوان وغير صنوان
يسقي بماء واحد ويفضل بعضها علي بعض في الأكل إن في ذلك
آيات لقوم يعقلون*.(الرعد:4)
بقلم : الدكتور زغلول النجار



هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع سورة الرعد، وهي سورة مكية، وآياتها 43 بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى حقيقة أن الرعد - وهو من الظواهر الجوية المتكررة - يمثل صورة من صور تسبيح تلك الظواهر لله تعالى انطلاقاً من قوله (سبحانه وتعالى): تسبيح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً*.(الإسراء:44) يدور المحور الرئيسي لسورة الرعد حول قضية العقيدة، ومن ركائزها توحيد الله، وتنزيهه (تعالى) عن الشريك والشبيه والمنازع وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والخضوع له وحده بالعبودية الكاملة، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، وبالوحي الخاتم الذي أوحاه إلي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، والإيمان كذلك بحتمية البعث والحساب والجنة والنار، كما جاء في كل رسالات السماء وتكامل وحفظ في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أجمعين من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وقد استهلكت سورة الرعد بأربعة من الحروف الهجائية المقطعة هي (الم)، وهذه المقطعات هي من أسرار القرآن الكريم التي لم يستطع العلم الكسبي أن يصل إلي تفسيرها بعد.

وبعد هذا الاستهلال انتقلت السورة الكريمة بالخطاب إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) مؤكدة أن القرآن الكريم هو الوحي الإلهي الخاتم الذي أنزله ربنا (تبارك وتعالى) عليه، وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون بذلك. واستشهدت بعدد من الحقائق الكونية علي وجود الله وعلي طلاقة قدرته في إبداع الخلق، وهيمنة سلطانه علي الكون وعلي كل من فيه وما فيه، واستنكرت موقف الكافرين من قضية البعث، واستبعدهم لإمكانية حدوثه بعد تحلل الأجساد وتحولها إلي تراب، وتعرض الآيات لشيء من عقاب

هؤلاء المكذبين في يوم القيامة، والذين كانوا - من فرط جهلهم وضلالهم - يستعجلون وقوع عذاب الله بهم بدلا من طلب الهداية منه، وقد مضت عقوبات أمثالهم من الأمم التي كفرت من قبل بريها فأهلكها الله (تعالى) بذنوبها، ولا يزال الإيمان والكفر يقسم البشرية كلها إلى فسطاطين متميزين حتي يوم الدين، والله (تعالى) غفار للذنوب ولكنه في الوقت نفسه شديد العقاب.

كذلك تنعي سورة الرعد علي الكافرين طلبهم للمعجزات والآيات الحسية بدلا من القرآن الكريم، جحودا به، وإنكارا لفضله وهو المعجزة الكبرى لخاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، وترد الآيات الكريمة في سورة الرعد بأن رسالة الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) كانت ولا تزال هي رسالة كل نبي وكل رسول من قبل، ألا وهي الهداية إلي دين الله والإنذار من عذابه.

واستعرضت سورة الرعد جانبا من صفات الله (تعالى) ومنها إحاطة علمه بكل شيء، ودقة من صنعه في كل شيء، وأنه (سبحانه) هو الكبير المتعال، الذي ليس لخلقهم من دونه من وال، وهو (تعالى) خالق البرق ومنشيء السحاب الثقيل، وهو الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، والذي يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهو الذي يسجد له من في السماوات ومن في الأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال، وهو خالق كل شيء، وهو الواحد القهار، وهو رب السماوات والأرض ومن فيهن، القائم علي كل نفس بما كسبت.

كذلك ساقط سورة الرعد عددا من الأمثال لكل من الحق والباطل، والهدى والضلال، ولسلوك كل من المصلحين في الأرض والمفسدين فيها، وأوضحت جزاء كل صنف من هذه الأصناف، ومايزت بين الجنة ونعيمها والنار وجحيمها، كما مايزت بين الدنيا والآخرة، وقررت أن الحياة الدنيا ليست إلا متاعا عارضا وأن الآخرة هي دار القرار، وأن الله (تعالى) يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب، وأنه (سبحانه وتعالى) قد أرسل خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) في أمة قد خلت من قبلها أمم ليتلو عليهم القرآن الكريم - معجزته الكبرى - وهم يكفرون بالرحمن كما يكفرون بالقرآن، ولله الأمر جميعا.. ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتي يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد*. (الرعد:31).

وفي مواساة رقيقة لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) تذكر الآيات أنه إذا كان نفر من الكفار والمشركين قد استهزأ بما أرسل به من حق فقد استهزيء برسل من قبله فأملئ الله (تعالى) للذين كفروا ثم أخذهم بعقاب شديد. كذلك تنعي الآيات علي الذين أشركوا بالله - مكرأ وصدا عن السبيل - وتصف شيئا من عذابهم في الحياة الدنيا وتقرر أن عذاب الآخرة أشق ومالهم من الله من واق.

وتصف الآيات في سورة الرعد جانبا من الجنة وتقرر أنها جزاء المتقين وأن جزاء الكافرين والمشركين هو النار، كما تقرر أن الذين أغفوا شيئا من علم الكتب المنزلة من قبل من شأنهم أن يفرحوا بما أنزل إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) لأنه الصورة النهائية التي تكاملت فيها كل الرسالات السماوية السابقة فهو امتداد لها وتأكيد عليها، أما الذين يتخذون التدين وسيلة للتحزب الأعمى والتعصب غير البصير فإنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا، وفي مقابلة هؤلاء تدعو الآيات في سورة الرعد خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم)

إلي أن يقول:
... إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مئاب*
(الرعد:36)

وتؤكد الآيات له (صلي الله عليه وسلم) أن القرآن الكريم أنزله الله (تعالى) باللغة العربية حكما للناس فيما بينهم، وحاكما علي جميع الكتب السماوية السابقة ومن ثم فلا يجوز مسايرة المشركين من أهل الكتاب فيما ذهبوا إليه من شرك بعد ما جاءه من علم قائم علي التوحيد الخالص لله (تعالى) بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، وإلا فماله من الله من ولي ولا واق. وتخاطبه (صلي الله عليه وسلم) الآيات بأن تعجب المشركين من أن الله (تعالى) قد جعل له أزواجا وذرية، وقد خصه بإنزال القرآن الكريم عليه وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب* (الرعد:38).
وتؤكد الآيات أن الله (تعالى) يمحو ما يشاء من شرائع، ويثبت ما يشاء، وأن عنده أصل كل ذلك، وإنما علي رسول الله البلاغ، وعلي الله الحساب.

كما تؤكد حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها وأن الله (تعالى) يحكم... لامعقب لحكمه وهو سريع الحساب* (الرعد:41)
وتشير الآيات إلي مكر الكافرين والمشركين في الأمم التي سبقت كفار ومشركي قريش فتقول: وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار* (الرعد:42) وتختتم سورة الرعد بخطاب كريم من الله (تعالى) إلي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) أنه إذا كان من وراء كل من الكافرين والمشركين، وصلفهم وعنادهم إنكارهم لنبوته (صلي الله عليه وسلم) فإن الله (تعالى) شاهدا علي صدق نبوته، وإن كل من عنده علم من الكتب السماوية السابقة يجد عنده ما يؤكد ذلك، والتنزيل الخاتم ينطق بقول الحق (تبارك وتعالى):
ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفي بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب
(الرعد:43)

من الاشارات الكونية في سورة الرعد
جاء في سورة الرعد إشارات إلي عدد غير قليل من حقائق الكون وآفاقه وطواهيره نوجز منها مايلي:

- (1) - رفع السماوات بغير عمد مرئية.
- (2) - تسخير الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى.
- (3) - مد الأرض (بمعني تكويرها)، وخلق الجبال رواسي فيها، وعلاقة ذلك بتكون الأنهار وتدفعها بالماء.
- (4) - خلق الثمرات النباتية (وخلق كل شيء) في زوجية واضحة.
- (5) - إغشاء الليل بالنهار في إشارة ضمنية رقيقة إلي كروية الأرض وإلي دورانها حول محورها أمام الشمس.
- (6) خلق الغلاف الصخري للأرض علي هيئة قطع متجاورات، وجعل الصخور المكونة لكل منها قطعاً متجاورات كذلك لأنها صخور مختلفة النشأة، متباينة في صفاتها الطبيعية والكيميائية، ومن ثم في أنواع التربة الناتجة عن تحليلها)

بالتجوية والتحات)، وفي تباين كل من ذلك في قدرته علي الإنبات تحت الظروف البيئية (المناخية والتضاريسية) المختلفة.

(7) - خلق جنات من أعناب في الأرض، وخلق الزرع والنخيل من أصل واحد ومن أصول متفرقة، يسقي بماء واحد، ويفضل الله (تعالى) بعضها علي بعض في الأكل. وفي ذلك إشارة واضحة إلي تنوع المجتمعات النباتية علي التربة الواحدة التي تسقي بماء واحد في الظروف البيئية الواحدة، وفي ذلك تعظيم لهذا التنوع في قطع الأرض المتجاورات، ذات التركيب الصخري والمعدني المختلف، وتحت الظروف البيئية المختلفة، وما يمكن أن ينتجه ذلك من أنواع متعددة من التربة ومن النباتات الزراعية المتعددة. وفي تنوع النباتات النامية في البيئة الواحدة إلماح إلي ما أودعه الله (تعالى) من أسرار في كل نبتة من نبات الأرض تحاول علوم الوراثة اليوم تفسيرها بالشفرة الوراثية الخاصة بكل نوع، ولما يحدث من تنوع في الصفات الوراثية أثناء عملية التلقيح بين الخلايا الذكورية والأنثوية في النوع الواحد وانعكاسات ذلك علي الاختلافات في الطعوم والألوان والأحجام والأشكال.

(8) الإشارة إلي حقيقة تحول أجساد الأحياء إلي تراب الأرض بعد الموت، وإلي حقيقة بعثها من تراب الأرض مرة أخرى.

(9) - الإشارة إلي حقيقة علم الله (تعالى) بما تحمل كل أنثي وبما تغيض الأرحام وما تزداد وأن كل شيء عنده بمقدار.

(10) - الإشارة إلي تكوين كل من الرعد والبرق وإرسال الصواعق وعلاقة ذلك بإنشاء السحاب الثقاب.

(11) الإشارة إلي حقيقة أن كل من في السماوات والأرض يسجد لله تعالى طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال.

(12) - المقابلة العلمية الدقيقة بين الظلمات والنور..

(13) - الإشارة إلي عملية إنزال الماء من السماء بقدر الله، وتدفقه في الأودية كل بقدره أيضا بمشيئة من الله وإرادته وتقديره.

(14) - تشبيه الحق بما يمكث في الأرض مما ينفع الناس من الثروات المعدنية التي تحملها السيول، وتشبيه الباطل بالزبد الطافي علي وجه السيل أو الخبث الذي يطفو فوق سطح الفلذات النفيسة حال صهرها لتنقيتها مما تحمله من شوائب.

(15) - الإشارة إلي حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها، وإلي استخدامات تلك الحقيقة في مقامات التشبيه والمجاز.

(16) - التأكيد علي وجود البشارات بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) في جميع الكتب السماوية السابقة علي بعثته الشريفة.

(17) التأكيد علي قيمة العقل في حياة الانسان. وعلي حتمية توظيفه في التفكير الجاد والتدبر العميق في الأنفس والآفاق حتي يتمكن الانسان من فهم حقيقة وجوده ودوره في الحياة.

من أقوال المفسرين



في تفسير قوله تعالى:

وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها علي بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (الرعد:4)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه:.. أي أراض يجاور بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئا، ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل علي الفاعل المختار لا إله إلا هو، وقوله: (وجنات من أعناب وزرع ونخيل) يحتمل أن تكون عاطفة علي جنات فيكون (زرع ونخيل) مرفوعين، ويحتمل أن يكون معطوفا علي أعناب فيكون مجرورا.. وقوله: (صنوان وغير صنوان) الصنوان هي الأصول المجتمعة في منبت واحد.. وغير الصنوان ما كان علي أصل واحد.. وقوله: (يسقي بماء واحد ونفضل بعضها علي بعض في الأكل).. أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها.. مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء.. ففي ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات علي الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها علي ما يريد ولهذا قال تعالى: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

* وجاء في كل من تفسير الجلالين والظلال وصفوة البيان لمعاني القرآن وصفوة التفاسير والمنتخب في تفسير القرآن الكريم كلام مشابه، إلا أن الخبراء أضافوا علي هامش المنتخب مانصه:

تشير الآية الكريمة إلي علوم الأراضي والبيئة وأثرها علي صفات النبات فمن المعروف علميا أن التربة الزراعية تتكون من حبيبات معدنية مختلفة المصدر والحجم والترتيب، ومن الماء ومصدره المطر، ومن الهواء، ومن المادة العضوية التي يرجع وجودها إلي بقايا النبات والأحياء الأخرى التي توجد علي سطح التربة أو في داخلها، وفضلا عن ذلك توجد ملايين الكائنات الحية الدقيقة التي لا تري بالعين المجردة لصغر حجمها وتختلف أعدادها من عشرات الملايين إلي مئاتها في كل جرام من التربة السطحية الزراعية. إن النظرة الشاملة لصفات التربة الطبيعية والكيميائية والحيوية إن دلت علي شيء فإنما تدل علي قدرة الخالق وروعة الخلق، فالأرض كما يقول الزراعيون بحق تختلف من شبر إلي شبر.

ومعروف للعلماء أن أي نقص في أحد المواد الأساسية للتغذية يتبعه تغيير مميز تظهر أعراضه علي النبات، ولذلك يعتمد الزراعيون إلي تعويض النقص بالتسميد الملائم، وعوامل البيئة أكثر من أن تحصى ولها أثر ملحوظ علي النمو والإثمار سواء أكان النبات متحد الأصل أو مختلفه فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وهو علي كل شيء قدير.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

في هذه الآية الكريمة عدد من الحقائق العلمية التي يمكن ايجازها فيما يلي:
أولاً: في قوله (تعالى): (وفي الأرض قطع متجاورات): يشمل هذا التعبير القرآني المعجز الحقائق التالية:

(1) تكون الغلاف الصخري للأرض من عدد من الألواح المتجاورة والتي يقدر عددها بأثني عشر لوحاً أرضياً كبيراً بالإضافة إلى عدد من الألواح الصغيرة، ويفصل هذه الألواح عن بعضها البعض شبكة هائلة من الخسوف الأرضية التي تتراوح أعماقها بين 65 كيلو متراً، 150 كيلو متراً، ويبلغ طولها عشرات الآلاف من الكيلو مترات، والتي تحيط بالأرض إحاطة كاملة وكأنها صدع واحد متعرج يشبهه العلماء باللحام على كرة التنس، وكل واحد من ألواح الغلاف الصخري للأرض له منشؤه الخاص به، وبالتالي تتباين هذه الألواح في تركيبها الصخري والمعدني وفي متوسط كثافة مادتها وسمكها.

(2) تكون كل واحد من ألواح الغلاف الصخري للأرض من الأنواع الرئيسية الثلاثة للصخور وهي: الصخور النارية والرسوبية والمتحولة بتفرداتها المختلفة، والتي تشكل قطعاً متجاورة في كل واحد من ألواح الغلاف الصخري للأرض، تتباين فيما بينها في صفاتها الطبيعية والكيميائية وفي مظاهرها الخارجية، وأشكالها على سطح الأرض. فالصخور النارية - على سبيل المثال - تنقسم إلى مجموعات حامضية وفوق حامضية، ومجموعات متوسطة الحامضية، ومجموعات قاعدية وفوق قاعدية، وكل مجموعة من تلك المجموعات منها الصخور عميقة المنشأ، عالية التبلور، التي تبلغ فيها البلورات أحجاماً كبيرة، ومنها الصخور الناشئة في أعماق متوسطة من القشرة الأرضية، وبالتالي فهي متوسطة التبلور ومتوسطة حجم البلورات، ومنها الصخور البركانية الزجاجية (أي عديمة التبلور) أو دقيقة البلورات، وبالمثل تتباين الصخور الرسوبية والمتحولة تبانياً شديداً، وحسب غلبة أي من هذه المجموعات الصخرية في أي من أجزاء الغلاف الصخري للأرض يكون التباين في القطع المتجاورة المكونة لكل واحد من هذه الألواح، وبالتالي للغلاف الصخري للأرض.

(3) تباين أنواع التربة الناتجة من تحلل كل نوع من أنواع هذه الصخور (بفعل عوامل التعرية المختلفة خاصة عوامل التجوية والتحات) تبانياً شديداً بتباين صخر المصدر واختلاف تركيبه الكيميائي والمعدني، وتباين الظروف البيئية (من المناخ والتضاريس والأنواع السائدة من صور الحياة وغيرها) بحيث تختلف التربة المغطية لكل نوع من أنواع الصخور المكونة لكل واحد من ألواح الغلاف الصخري للأرض اختلافاً هائلاً من بقعة إلى أخرى على هيئة قطع متجاورات، مما أعطي للأرض قدراً هائلاً من التنوع في صفاتها الطبيعية والكيميائية وفي قدرتها على الانبات.

وعلى ذلك فإن الأرض تتباين إلى قطع متجاورات بتباين الألواح المكونة لغلافها الصخري، وتباين أنواع الصخور المكونة لكل واحد من تلك الألواح، وتباين أنواع التربة الناتجة عن تجوية وتحات كل نوع من أنواع تلك الصخور تحت الظروف البيئية المتعددة بتعدد النطق المناخية والتضاريس وأنواع الحياة السائدة فيها، ومن ثم فإن هذه القطع المتجاورات من الأرض تتباين تبانياً هائلاً في قدرتها على الانبات، وفيما تحمله من أنواع الكساء الخضري وما يحمله هذا الكساء من ثمار، فقد ثبت أخيراً أن لكل نوع من أنواع الحياة بيئته الخاصة التي يحيا فيها، وبذلك يتكون الغلاف الحيوي للأرض من العديد من المجالات، والمواطن، والمنظومات البيئية التي تتميز كل منها بخصائصها

الجغرافية من التضاريس، والمناخ، وأنواع الصخور، والتربة، والمجموعات الإحيائية المرتبطة بها، فعلى سبيل المثال هناك أنواع من أنواع الحياة قد وهبها الله (تعالى) القدرة على التعايش مع بعضها البعض في عشرة مفيدة لكل نوعين متعايشين في تكافل حيوي متبادل، وقد يكون هذا التعايش مفيدا لأحدهما دون الآخر، ولكنه غير ضار بهذا الآخر، وحين يكون ضارا به تسمى العلاقة باسم التطفل.

وكل كائن حي له مجاله البيئي أي موقعه في موطن بيئي محدد، من نظام بيئي معين، يشمل نوع الصخور، وأنواع التربة، وتضاريس سطح الأرض، والظروف المناخية، وأنواع الكائنات الحية المتعايشة معه في نفس البيئة والتي تتفاعل معه وتؤثر فيه أو تتأثر به. وتتوزع النظم البيئية على سطح الأرض.. فتتفاوت بين المناطق الاستوائية التي تتميز بشدة الحرارة وارتفاع نسبة الرطوبة، والمناطق القطبية التي تتميز بجوها القارس البرودة الجاف، والمناطق المعتدلة بينهما، كما تتفاوت في الموقع الواحد بين القمم السابقة والسفوح الهابطة والسهول المنبسطة، فعلى القمم التي يزيد ارتفاعها عن ثلاثة آلاف متر تتضاءل الحياة إلى بعض الطحالب التي تنمو على الجليد أو في برك الماء الناتجة عن انصهار الجليد، وبين 3000,2500 متر تقريبا تنتشر زهور دقيقة بين شقوق الصخور، وبين حوالي 2500,2000 متر تقريبا تنتشر أشجار الصنوبر الجبلي، وبين حوالي 2000,1500 متر تنتشر الغابات المخروطية، وبين حوالي 2000,1000 متر تقريبا تنتشر الغابات النفضية، ودون ذلك تنتشر الغابات والزراعات المختلفة من السهول المنبسطة إلى ارتفاع ألف متر تقريبا فوق مستوى سطح البحر.

وكثير من هذه الأنظمة البيئية يتداخل في بعضها البعض بتدرج ملحوظ، وإن كان البعض منها ينتهي إلى حدود متميزة تتغير عندها البيئات تغيرا فجائيا. وكل واحد من هذه النظم البيئية معرض للتغير بتغير الظروف المناخية بصورة تدريجية أو فجائية أو بتدخل الإنسان مما يؤدي إلى تغير الكساء الخضري أو إزالته، وإلى هجرة الحيوانات أو انقراضها، وكل ذلك يساعد على تباین الأرض إلى قطع متجاورات تختلف في تكوينها الصخري، وصفاتها الطبيعية والكيميائية، كما تختلف باختلاف التربة المتكونة فوق تلك الصخور، وباختلاف ظروفها البيئية ومحتواها من صور الحياة، وباختلاف ذلك كله مع الزمن. ولما كان أحوال قطع الأرض المتجاورات في تغير مستمر جاءت الإشارة إليها في الآية الكريمة التي نحن بصددتها بالتنكير دون التعريف (قطع وليست القطع) وهي من الومضات المبهرة في هذه الآية الكريمة.

هذه الحقائق لم يدركها العلم الكسبي إلا في العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر وفي ثانيا القرن العشرين، وورودها في كتاب الله المنزل في أوائل القرن السابع الميلادي على نبي أمي (صلي الله عليه وسلم)، في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ومما يشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوه وبالرسالة فصلي الله وسلم وبارك عليه وعلى اله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

ثانيا: في قوله (تعالى) (وجنات من أعناب وزرع ونخيل) إشارة إلى عدد من الحقائق العلمية في هذه النباتات نوجزها فيما يلي:

(1) (وجنات من أعناب): جاء ذكر العنب في أحد عشر موضعا من كتاب الله منها موضعان بصيغة الافراد (عنب وعنبا) وتسعة مواضع بصيغة الجمع (أعناب وأعنابا)، وفي أغلب هذه الحالات جاء ذكر النخل بالافراد والجمع مع ذكر العنب أو الأعناب.

وثمره العنب ثمرة مميزة فبالإضافة الي محتواها العالي من المواد السكرية بالنسبة الي جميع الفواكه الأخرى فإنها تحتوي علي العديد من الفيتامينات من مثل فيتامين (أ)، (ج)، وعلي المواد العضوية من مثل البروتينات النباتية، والأحماض، والخمائر، وأملاح العديد من العناصر مثل البوتاسيوم، والصوديوم، والكالسيوم، والفوسفور، والحديد، وغيرها من المركبات العضوية وغير العضوية التي توجد في ثمرة العنب بنسب متوازنة، مما يجعلها أنسب انواع الغذاء ومن أنقي مايمكن أن يتناوله الانسان من ثمار.

ولذلك أثبت العنب فعالية ملحوظة في تنقية الدم من السميات، والفضلات والرواسب العضوية وغير العضوية ومن الفيروسات والفطريات والجراثيم المسببة للعديد من الأمراض، وفي تقوية مناعة الجسم، وفي تجديد بناء خلاياه المتهدمة خاصة اذا تم تناوله وحده علي معدة خالية أي بعد صيام يوم كامل، ولفترة تتراوح بين خمسة وسبعة اسابيع متواصلة. وتعزي سرعة تفاعل العنب مع جسم الانسان إلي امتصاص الجسم له مباشرة دون الحاجة الي هضمه.

وقد استخدم العنب بنجاح في علاج العديد من الأمراض من مثل النقرس، الأمراض الروماتيزمية، الأمراض الناتجة عن الإصابة بدودة البلهارسيا، فقر الدم، وأمراض الجهاز الهضمي والإخراجي، والتنفسي، والتهابات الكبد والمثانة، والالتهابات والقرح الداخلية والخارجية، وتقيحات الفم واللثة وتسوس الأسنان، وأمراض السرطان في حالات كثيرة خاصة في مراحلها الأولية. وقد أكتشف أخيرا أن ثمرة العنب تحتوي علي مركب شديد الفعالية في مقاومة أمراض السرطان وغيره من الأمراض المستعصية في مراحلها المختلفة ويعرف هذا المركب باسم (ريزفيراترول=Resveratrol) وهذا المركب موجود في ثمار 72 نبات آخر منها التوت، الفول السوداني، وبعض البقول مثل الحمص والفول البلدي والعدس ولكن بنسب أقل من نسب وجوده في العنب. وقد شهد بذلك كل من (الدكتورة جوهانا براندت) التي شفاها الله (تعالى عن طريق تناولها العنب بعد صراع مع هذا المرض الخبيث (السرطان) استمر لتسع سنوات، ونشرت قصتها في كتاب بعنوان قصة الاكتشاف طبع بمدينة نيويورك سنة 1928 م وتم نشره عدة مرات بعد ذلك.

كما شهد بذلك (السيد/ باسيل شاكلتون) بعد صراع مع الفشل الكلوي استمر زهاء الأربعين عاما، ونشر كتابا بعنوان التداوي بالعنب (TheGradeCure) ذكر فيه قصته وقصة (الدكتورة جوهانا براندت) وغيرهما من القصص التي تروي فضل العنب في علاج العديد من الأمراض. وقد قام بترجمة الكتاب الأخير الدكتور محمد الشيخ عمر وقامت بطبعه مؤسسة المدني (68 شارع العباسية - القاهرة) وتقوم بتوزيعه مجانا مكتبة الدكتور عبدالرحمن عمر نصيف (في مدينة جدة - بالمملكة العربية السعودية) وعصير العنب مركز ومخفف يعتبر من المطهرات القوية، وتستخدم محاليله المخففة في تطهير كل من الأذان، والأنف، والفم، والحنجرة، كما يمكن استخدامه علي هيئة ضمادات في معالجة الجروح والتقيحات الخارجية، وثمره العنب يمكن تجفيفها وتحويلها إلي زبيب

دون أن ينقص ذلك من قيمتها الغذائية والعلاجية التي يظل الزبيب محتفظا بها لفترات طويلة.

هذه الفوائد الجليلة لثمرة العنب وغيرها مما لم يكتشف بعد ربما كان من وراء ذكر القرآن الكريم له علي وجه الخصوص في أحد عشر موضعا من عشر سور كريمة، ووصف مناطق زراعته بالوصف جنات في أغلب ما ذكر فيه من آيات، وجعله من ثمار الجنة، وإن كانت الجنة غيب لا يعلمه إلا الله، وكانت سننها وقوانينها وأوصاف الأشياء فيها مغايرة للدنيا وما فيها من خلأق وإن جاء الوصف في (سورة النبأ) من باب تقريب الأمر لأهل الدنيا ولكنه يبقى تشريفا لشجرة العنب ولثمرتها الطيبة المباركة.

(2) (وزرع ونخيل): لفظة زرع هنا تشمل كل أنواع الزروع (النباتات) وذكرها هنا وفي مواضع: أخرى كثيرة من القرآن الكريم تبلغ المواضع العشرة (غير أربعة مواضع أخرى جاءت فيها بصيغة الفعل أو الفاعل) جاء ليؤكد كل أنواع النبات مع التركيز علي أنواع خاصة منها كالأعشاب والنخيل في الآية التي نحن بصددنا، وكالتين والزيتون والرمان والموز (الطلح) في مواضع أخرى تأكيدا علي أهمية خاصة في كل منها تميزها عن بقية الثمار والزروع. والنخيل من الأشجار دائمة الخضرة، وتتميز بساق طويلة بأسفة تنتهي بمجموعة من الأوراق في قمته، وليست لها فروع، وهي لا تسقط أوراقها التي تستر براعمها في قمته إلا بفعل الإنسان وثمار النخيل من (بسر)، و(رطب)، و(بلح)، و(تمر)، يعتبر من الثمار النباتية المتميزة بقيمة غذائية عالية، فالتمر الجاف يحتوي علي مواد كربوهيدراتية بما فيها من السكريات بنسب تزيد علي 70%، وعلي ماء بنسبة 13%، والياف بنسبة 10%، وعلي مواد دهنية بنسب تصل الي 2.5%، وعلي أملاح معدنية بنسب تصل الي 1.5%، وعلي فيتامينات (أ)، (ب)، (ج) وبروتينات وهرمونات ومضادات حيوية بالنسب المتبقية.

ومن هذه الهرمونات، ما يتكون من تسعة أحماض أمينية، وبشبه هرمون الأوكستينوسين الذي يلعب أدوارا مهمة في جسم الإنسان ذكرنا أن أنثي من مثل إيقاف النزيف، وعلي إدراج اللبن والمساعدة علي يسر المخاض، وعلي اندمال الرحم وانقباضه بعد الولادة، وعلي ترقيق المشاعر، وتثبيت الغؤاد، وانشرار الصدر، وجلاء الأحزان عند الجنسين، ومنها هرمون الأستروجين الذي له وظائف كثيرة في جسم الإنسان من أهمها ضبط توازن كل من الدهون والأملاح في الجسم، ومن أهم مكونات التمر أملاح المغنسيوم والمنجنيز والحديد التي توجد بنسب مناسبة وبصورة سهلة الامتصاص بواسطة جسم الانسان والأول له تأثير بالغ علي الغدد الموجودة بالجسم بما في ذلك الغدد الصماء التي تقوم علي إفراز الهرمونات، وله دور كذلك في تهدئة الجهاز العصبي، وسلامة كل من العظام والأسنان، وفي زيادة معدلات نمو الخلايا، ومرونة الأنسجة، ومقاومة السموم الحمضية، وخفض حرارة الجسم وترطيبه، أما المنجنيز فأملأحه مهدئة للأعصاب، ومرفقة للمشاعر والعواطف، ومزيلة للهموم والمخاوف، ومطمئنة للنفس، والحديد يلعب دورا هاما في بناء المادة الحمراء في الدم، ويصل إلي الأطفال الرضع عن طريق لبن الأمهات في أثناء الرضاعة الطبيعية.

من هنا كان تركيز القرآن الكريم علي النخيل لتمييزه علي غيره من النباتات ولأهمية ثمره البالغة، ولذلك جاء ذكره في عشرين آية قرآنية مباركة في ست عشرة سورة، ومن هذه الآيات ما ذكر (النخلة) مفردة كما جاء في سورة مريم مرتين لتحديد نخلة معينة بذاته، ومنها ما ذكر (النخل) معرفا في عشر آيات،

وما ذكر (نخيل) بصيغ الجمع غير المعرفة سبع مرات، و(نخلا) مرة واحدة.

ثالثاً: في قوله (تعالى): (صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد ويفضل بعضها علي بعض في الأكل) يعرف العلماء اليوم أكثر من أربعمئة ألف نوع من أنواع النباتات، منها حوالي 250.000 نوع من أنواع النباتات الزهرية التي أعطاها الله (تعالى) القدرة علي إنتاج غذائها بعملية التمثيل الضوئي، وحوالي 150.000 نوع من النباتات غير الزهرية التي ليست لها قدرة علي القيام بعملية التمثيل الضوئي فتتغذي بطرائق أخرى.

وكل نوع من هذه النباتات مرتبط ارتباطاً وثيقاً ببيئته المحكومة بوضعه الجغرافي من التضاريس والمناخ، وتباين أنواع الصخور والتربة ووفرة الماء أو قلته، وتعدد الكائنات المصاحبة له وغير ذلك من عوامل، ولكنه محكوم أكثر بشفرته الوراثية التي تتحكم في صفاته وقدراته المختلفة ومنها قدرته علي اختيار أنواع محددة من عناصر ومركبات الأرض التي تحيا عليها لتعطي ثماراً أو حبواً وبذوراً خاصة لكل منها طعمه، ورائحته، ولونه، وشكله، وحجمه، مع انفاق كل الظروف البيئية المحيطة فكل نوع من أنواع النبات - كأي كائن حي - له عدد من مجدد من الصيغيات يميز عن غيره، وكل واحد من هذه الصيغيات يحمل عود من المورثات (الجينات) يصدر كل منها التعليمات اللازمة للخلية لتصنيع بروتين محدد، ومع تباين المورثات من نبات إلي آخر تتباين البروتينات المنتجة بداخل الخلايا، ومن ثم تتباين ثمارها طعوماً ورائحة وألواناً وأشكالاً وأحجاماً وهي متماثلة من نوع واحد (صنوان) أو غير متماثلة من أنواع متعددة (غير صنوان) تسقي بماء واحد ويفضل الله (تعالى) بعضها علي بعض في الأكل.

ويتم هذا التنوع بين أفراد النوع الواحد من النبات في أثناء عملية التكاثر واتحاد المورثات بين الخلايا الذكورية والأنثوية بنسب مختلفة، فتتنوع الثمار تحت نفس الظروف البيئية وفي النوع الواحد (صنوان)، كما يتم بين الأنواع المختلفة في البيئة الواحدة (غير صنوان) وبين البيئات المختلفة حتي تتعدد الثمار والحبوب والمنتجات النباتية لتفي بكل احتياجات الحياة علي الأرض. وفي الآية الكريمة إشارة إلي علوم التصنيف والوراثة والبيئة والأراضي وهي حقائق لم تتكشف للإنسان إلا بصورة بدائية في نهايات القرن الثامن عشر الميلادي ولم يتم تبلورها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في كتاب الله الذي أنزل في مطلع القرن السابع الميلادي بهذه الدقة العلمية والشمول والإحاطة لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه ولذلك نزلت الآية يقول الحق (تبارك وتعالى) أن في ذلك لآية لقوم يعقلون.. فصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين والحمد لله رب العالمين.